

تجليات البعد التداولي عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز"

Manifestations of Evacuations according to Abd al-Qahir al-Jurjani through his book "Dala'il al-I'jaz"

إلياس هاشمي¹

تاريخ النشر: 2025/06/20	تاريخ القبول: 2025/05/15	تاريخ الإرسال: 2023/12/29
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى إبراز البعد التداولي في البلاغة العربية، وفي علم المعاني على وجه الخصوص، من خلال كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وذلك بالتركيز على مقامات الحال، والنظر إلى السياق في حالته الاجتماعية، وحال المخاطب وغيرها من المباحث التي تجمع بين آليات البلاغة من جهة، وما تطرقت إليه التداولية في العصر الحديث من جهة أخرى.

ولا شك أن التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي، وتبحث عن توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي، من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولد المعنى، وقد تعرضت البلاغة العربية قديماً إلى حيثياته، وأشارت إلى معالمة. فريد بذلك أن نضيف على البحث مقارنة جديدة لموضوع العلاقة بين البلاغة العربية وبعدها التداولي.

الكلمات المفتاحية: البعد التداولي، البلاغة العربية، دلائل الإعجاز، السياق، عبد القاهر الجرجاني.

Abstract:

This research seeks to highlight the pragmatic dimension in Arabic rhetoric, and in semantics in particular, through the book Dala'il al-I'jaz by

¹ المدرسة العليا للأساتذة "مستغانم" hachemi.30041990@gmail.com

Abd al-Qahir al-Jurjani, by focusing on the positions of the situation, looking at the context in his social situation, the situation of the addressee, and other topics that combine the mechanisms of rhetoric. On the one hand, and what trading has dealt with in the modern era on the other hand.

There is no doubt that pragmatics is based on the study of linguistic use, and searches for the employment of linguistic meaning in actual use, in that it is a complex form of behavior that generates meaning, and Arabic rhetoric in ancient times addressed its implications and pointed out its features. In doing so, we want to give the research a new approach to the topic of the relationship between Arabic rhetoric and its deliberative dimension.

Key words: *The transactional dimension, Arabic rhetoric, evidence of miraculousness, context.*

*** **

المؤلف المرسل: إلياس هاشمي، hachemi.30041990@gmail.com

مقدمة:

يعدّ علم المعاني من أهمّ علوم البلاغة وأكثرها دقّة؛ باعتباره علماً ينظر في أحوال الكلام العربي من خلال مطابقته لمقتضى حال المخاطب، بغية الوصول إلى مَصَافِّ البلغاء وركب الفصحاء، فهو من الفنون التي تعرّفنا صياغة العبارة صياغة تناسب المقام الذي تقال فيه، ويمكننا من التعبير عن المقصود الذي نبتغيه تعبيراً دقيقاً.

ومن ينظر في البلاغة العربيّة يرى ما لعلوم البلاغة من مُزاعاةٍ سياقاتِ الكلام وأحوال المخاطب في المجتمع، فتجدهم يعرفون البلاغة مثلاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، فلا يكون الكلام بليغاً إلا إذا روعي مقام الحال، واستطاع صاحبه أن يعبر عن مكنون صدره بأفصح عبارة في المقام المناسب.

وتقوم بلاغتنا العربية - وبالخصوص علم المعاني - على مباحث ومسائل لها ارتباط وثيق بما أشادت به التداولية في العصر الحديث؛ إذ تُعنى هاته الأخيرة بالجانب الاستعمالي للغة، وحسن التفاعل معها، كما أشار إلى ذلك طه عبد الرحمان في تبيان ماهية التداولية بقوله: «وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على المصطلح التداوليات مقابلاً للمصطلح براغماتياً؛ يوفي المطلوب حقّه، باعتبار دلالته على معنيين الاستعمال والتفاعل معه»¹.

وتتمحور في مفهوم السياق الذي حدّه أصحابه على أنّه "الوحدات التي تسبق أو تعقب وحدة معينة"، أو "مجموعة الظروف الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقة الموجودة بين الظواهر اللغوية والاجتماعية، وتعرف بالسياق الاجتماعي للاستعمال اللغوي، أو سياق الحال.

ومن خلال ما تقدّم يحاول البحث أن يعالج الإشكالية الآتية: ماهي أهم ملامح التداولية التي برزت في البلاغة العربية عموماً؟ وفي علم المعاني خصوصاً، وفيتم تمثلت مظاهر التداولية عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز"؟ وعليه يهدف البحث إلى استعراض أهمّ تحليلات عبد القاهر الجرجاني الدقيقة، وتفسيراته الوجهية لنظرية النظم، وما يتخلّلها من أبعاد تداولية.

2. التداولية والبلاغة العربية:

1.2 مفهوم علم المعاني:

لقد عرّف الخطيب القزويني علم المعاني على أنّه: علمٌ يعرف به أحوال اللَّفْظِ الَّتِي يَتَّابِقُ مَقْتَضَى الْحَالِ²، أي: ما يناسب المخاطب والمقام الذي يقتضي ذلك، وبصيغة أخرى يدرس علم المعاني أحوال الكلام العربي وما يتعلق به من إنشاء وخبر، وما يعتريه من أحوال الإسناد الخبري "التقديم وتأخير، الحذف، القصر" والفصل والوصل، وما يعتري الكلام من إيجاز وإطناب ومساواة، كلّ هذا يراعى على حسب مقام الحال، ونفسية المخاطب، والمقام الذي يناسبه، فلا يخاطب الذكي بنفس الخطاب الذي يقدم للغبي والعكس، والكلام الذي يناسب مقام الفرح غير المقام الذي يناسب مقام الحزن "لكل مقام مقال".

ولذلك كان تعريف البيانين لعلم البلاغة مقترنا بمناسبته لأغراض المتكلمين وموافقته لمقام الحال، فلا يكون الكلام بليغا وفصيحا حتى يقال في الموضع الذي يناسبه، ومن هنا جاء تعريف البلاغة بقولهم: أما البلاغة فهي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة فصيحة بليغة، بها في النفس أثر خلاب مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذي خاطبون³.

وينوّه السكاكي إلى مقتضى الحال: ثمّ إذا شرعت في الكلام، فلكلّ كلمة مع صاحبها مقام⁴. ويقول في موضع آخر: لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة.

ويوضّح تمام حسان مفهوم المقام بقوله: "موقف اجتماعي باعتبار اللّغة ظاهراً اجتماعيّة شديدة الامتزاج بثقافة الشعب أو الأمة، فهذه الثقافة التي تتشكّل من المواقف الاجتماعية المتباينة"⁵.

2.2 مفهوم التداولية وأقسامها:

تعد التداولية فرعاً من فروع اللسانيات التي تعنى بالجانب الاستعمالي والوظيفي للغة، مهتمة بالمتكلم والمتلقي على حدّ سواء على غرار علوم اللسانيات الأخرى.

ومما جاء في بيان مدلول التداوليّة: "هي دراسة اللّغة في الاستعمال أو في التّواصل؛ لأنها تشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متّصلاً بالكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا المتلقي وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللّغة بين المتكلم/ المرسل والمتلقي/ المرسل إليه في سياق محدّد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما"⁶.

وتنهض التداوليّة للنّص على مفهوم مقام الخطاب، ويقصد به الظرف الزماني أو المكاني أو الإنساني، بكلّ مشكلاته ومعطياته التي تحيط باللّغة وبالكلام⁷.

وقد قسّم الباحثون التداوليّة إلى ثلاثة أنواع⁸:

1. التداوليّة اللّفظيّة "لسانيات التّلفّظ" وتبنّاها "شارل موريس"، وتعنى بوصف العلاقات الموجودة بين المعطيات الداخليّة للملفوظ وخصائص الجهاز التّلفّظي {المتكلم والمخاطب وصفة الخطاب}.

2. التداولية التخاطبية "نظرية أفعال اللغة": تُعنى بالقيم التخاطبية المضمره داخل الملفوظ، والتي تسمع بالاشتغال كفعل لغوي.

3. التداولية التحويلية: تشتغل بالحوارات، وهي تبادلات كلامية تقتضي خصوصيتها أن تنجز بمساعدة دوال لفظية.

فيتعين مما ذكر أن هذه النظرية التداولية تسعى إلى عدة أهداف، نذكر منها:

أ- معرفة الأساليب المختلفة للمنطوقات، وتصنيفها حسب المواقف الصحيحة بالإضافة إلى معرفة الملامح الشكلية نفسها.

ب- وصف الاستعمال الفعلي لنطق معين في موقفه الخاص باعتباره شيئاً فريداً.

ج- معرفة الوظائف الدلالية التي يمكن إرجاعها إلى التركيبات النحوية.

د- إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم وسائر المشتركين في الكلام.

هـ- وجوب تحديد بيئة الكلام؛ لأنّ هذا التحديد يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى...

و- يجب تحليل الكلام إلى عناصره ووحداته الداخلية المكونة له، والكشف عما بينهما من علاقات داخلية لكي نصل إلى المعنى⁹.

3. تجليات البعد التداولي في كتاب دلائل الإعجاز:

1.3 ملامح التداولية في البلاغة العربية:

إذا ما تتبعنا الأساليب البلاغية مثل الإنشاء والخبر، ومتعلقات الفعل، والتقديم والتأخير والحذف، والفصل والوصل، وضروب المجاز...، فإننا نجد صلةً بين الأساليب البيانية المختلفة ومستعملها وطرائق استخدامها، والسياقات التي قيلت فيها، وقد جعلت الخطاب رسالةً تواصليةً واضحةً وناجحةً، وإنّ تطبیق مفهوم التداولية على اللغة العربية سيُسهم في إبراز الأبعاد التداولية، ورصد خصائصها، وتفسير ظواهرها الخطابية التواصلية.

إنّ التداولية ليست علمًا لسانياً محضًا يقوم على تفسير البنى اللغوية، ويتوقف عند حدودها، وأشكالها الظاهرة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى البحث في الأدوات التي

يختارها التّكلم، ليحقّق أرقى درجات النّجاح في تواصله مع المخاطب؛ ولذلك فإنّ أسمى مقامات التّداولية في التّراث العربيّ المقولة الشهيرة الّتي مفادها أنّ " لكلّ كلمة مع صاحبها مقام"، وكذلك مقولة البلاغيين: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" ¹⁰.

ويتجلّى ذلك بوضوح في أضرب الخبر وأغراض الخبر الّتي يبرز فيها دور المقام أو مقتضى الحال فالقاء الخبر يُراعى فيه أحوال المخاطبين، الّذين نتحدّث إليهم ¹¹، وكذلك بالنّسبة ورود الاسم نكرة أو معرفة يراعى فيه حال المخاطب، مثال ذلك ما ذكره مصطفى الشّكعة: « ويتحقّق باختيار الاسم النّكرة أغراض بلاغيّة متعدّدة، تقتضيها أحوال المخاطبين، ويُستدلّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال. ويتحقّق باختيار الاسم المعرفة أغراض بلاغيّة مُتعدّدة أيضًا تقتضيها أحوال المخاطبين، ويُستدلّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال، وذلك بحسب المعرفة» ¹².

لذلك نجد بلاغة الكلام تحدّد بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ¹³.

2.3 مظاهر التّداولية عند عبد القاهر الجرجاني:

من أمّهات الكتب الّتي تجلّت فيها أبعاد التّداوليّة، ولاحت بأفكارها، ونصّت على معالمها، كتاب "دلائل الإعجاز"، حيث نرى فيه نماذج عديدة تجسّد بوضوح العلاقة الّتي تربط التّراث النّحوي أو البلاغي بما يتناوله التّداوليون اليوم في نظريّاتهم.

يقول عبد القاهر الجرجاني متحدّثًا عن الفصاحة، ومبيّنًا مدى تأثيرها في النّفس: «..ثمّ تَبَرُّجُهَا فِي صُورَةٍ هِيَ أَهْيَ وَأَزِينُ وَأَنَقُ شَأْوَا أُعْجِبُ وَأَحَقُّ بِأَنْ تَسْتَوِي عَلَى هَوَى النَّفْسِ، وَتَنَالَ الْحِظَّ الْأَوْفَرَ مِنْ مَيْلِ الْقُلُوبِ، وَأُولَى بِأَنْ تُطْلَقَ لِسَانَ الْحَامِدِ، وَتُطِيلَ رَغَمَ الْحَاسِدِ وَلَا جَهَةَ لَاسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْخِصَالِ» ¹⁴.

فقد أوضح الجرجاني ما للفظ من المزيّة والحُسْن وقُدْرته في التّأثير على المتلقّي، واستمالة قلبه، فكلّما استطاع المتكلّم أن يضع كلامه في صورة أهيّ وأجمل كان ذلك أمكن في النّفوذ إلى قلب القارئ أو السّامع، وتتجلّى هذه الرّؤية كثيرًا لدى التّداوليّة الحديثة في مفهومها العام "دراسة الاتّصال اللّغوي في السّياق" حيثُ تعالج أثر السّياق في بنية الخطاب، وعلاقة العلامة اللّغويّة بمستعملها من حيث التّلقّي والقبول.

وقد تأكد مع " أستين " أن اللغة لا تكتفي بمجرد الإخبار والتواصل بل هي أداة لإنجاز الأعمال، لا تتحقق دراسة الاتصال اللغوي إلا باللغة المؤثرة في السياق¹⁵.

ويشيد عبد القادر الجرجاني أيضا في موضع آخر بالأثر الذي تحدثه الكناية في نفس صاحبها: « أمّا " التمثيل " الذي يكون مجازاً لمجيبك به على حد الاستعارة، فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: "أراك تقدم رجلاً وتؤخر"، وكذلك تقول للرجل يعمل في غير معمول: "أراك تنفخ في غير فحم، وتخط على الماء، وإذا قلت: "بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى"، كان أوقع من صريحه الذي هو قولك: بلغني أنك تتردد في أمرك، وأنت في ذلك كمن يقول: أخرج ولا أخرج، فتقدم رجلاً وتؤخر أخرى، ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيه¹⁶.

معنى ذلك أن عبارة "بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى" أكد في رفع الشك عن السامع؛ لأنها كناية عن التردد في الشيء، وعدم التصريح. كما في الجملة الأولى. أبلغ من التصريح؛ لأن ذلك يقدم الحقيقة مصحوبة بدليها، ويعطي القضية وفي طيها برهانها، فلا يخالج السامع في ذلك شيء، كما قال ابن الناظر في المصباح: «والكناية دعوى الشيء ببينة، وفرق بين دعوى الشيء ببينة ودعواه بدونها»¹⁷.

كما يجب على البليغ أن يوظف في كلامه طائفة من الأدوات البلاغية نحو التشبيه وأنواعه والمجاز والكناية، والاستعارة بأنواعها كي يكون كلامه بليغاً، في صورة تأسر المتلقي وتؤثر فيه، وتعد هذه الجوانب البلاغية المرتبطة بالخطاب مؤشرات تداولية مهمة تعنى بها قضايا تداولية¹⁸.

ومن أبرز المواطن التي تتجلى فيها مفاهيم التداولية أو نظرية السياق "التقديم والتأخير"، والذي يتضمن أغراضاً بلاغية متعددة، على حسب ما تقتضها أحوال المخاطبين، ويُسْتَدَلُّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال.

يقول عبد القادر الجرجاني: «وقال النحويون: إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يُبالون مَنْ أوقعه، كمثله ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيثُ ويُفسد، ويكثُر به الأذى، أنهم يريدون قتله.

ولا يُبالون مَنْ كَانَ الْقَتْلُ مِنْهُ، وَلَا يَغْنَبُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ. فَإِذَا قُتِلَ، وَأَرَادَ مُرِيدُ الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذَكَرَ الْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ: "قَتَلَ الْخَارِجِيُّ زَيْدًا"، وَلَا يَقُولُ: "قَتَلَ زَيْدٌ الْخَارِجِيَّ"

لأنَّه يعلم أن ليس للنَّاسِ في أنْ يعلموا أنَّ القاتِلَ له "زيدٌ" جَدْوَى وفائدة، فَيَغْنَبُهُمْ ذِكْرُهُ وَبِهِمْ يُتَّصَلُ بِمَسَرَّتِهِمْ»¹⁹.

لَشَكِّ أَنَّ الْعِنَايَةَ وَالْاهْتِمَامَ أَهَمَّ غَرَضٍ لِلتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ لَذَلِكَ قَالَ سَبِيوِيه: «كَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْدَمُونَ الَّذِي بَيَّانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ، وَهُمْ بَيَّانُهُ أَعْنَى، وَإِنْ كَانَا جَمِيعاً يُهْمَانِهِمْ، وَيَعْنِيَانِهِمْ»²⁰.

ففي قولنا: " قتل الخارجي زيد " تقدّم المفعول به على الفاعل لاعتناء النَّاسِ بذكره إذ هو الَّذِي أَرْقَهُمْ وَأَقْضَى مُضَاجَعَهُمْ، فَكَانَ لَازِماً أَنْ يقدّم مراعاةً لما يهتم به النَّاسُ، ويشغل أذهانهم.

«يُمَثِّلُونَ فِي ذَلِكَ بِخَارِجِيٍّ عَاثَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَأَذَى النَّاسِ بِشُرُورِهِ، فَحِينَ تَخْبِرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَتَلَ، فَإِنَّكَ تَسْبِقُ ذَكَرَ الْخَارِجِيِّ لِاهْتِمَامِ النَّاسِ بِذِكْرِهِ فَهُمْ لَا يِبَالُونَ بِمَعْرِفَةِ الْقَاتِلِ، وَيَعْنِيهِمْ مَا يَتَّصَلُ بِمَسَرَّتِهِمْ وَأَحْزَانِهِمْ، فَقَدِّمُ هُنَا لِلْعِنَايَةِ وَالْاهْتِمَامِ»²¹.

ثم قالوا: فإن كان رجلٌ ليس له بأسٌ ولا يقدّرُ فيه أنّه يَفْتُلُ، فَيَقْتُلُ رَجُلًا، وَأَرَادَ الْمَخْبِرُ أَنْ يَخْبَرَ بِذَلِكَ، فَإِنْ يُقَدِّمُ ذَكَرَ الْقَاتِلِ فَيَقُولُ: "قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا"، ذَاكَ لِأَنَّ الَّذِي يَعْنِيهِ وَيَعْنِي النَّاسَ مِنْ شَأْنِ هَذَا الْقَتْلِ.

في حين نجد "عبد القاهر الجرجاني" يلقي بنظره، وبلور فكره الثَّاقِبَ على أسلوب الاستفهام، وخروجه إلى أغراض مقامية ناتجة. من إرادة المتكلم، وقصده، ومن المعاني التي يذكرها التقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار، ويشترط فيه أن يلي همزة الاستفهام المقرّر به كقولك: "أفعلت؟" إذا أردت أن تقرّره بأنّ الفعل كان منه، وقولك: "أأنت فعلت؟" إذا أردت أن تقرّره بأنّه الفاعل²².

جاء في كتاب دلائل الإعجاز: «وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ فِي "الهمزة وهي للاستفهام" قائمٌ فيها إذا هي كانت للتقرير. فإذا قلت: "أَأَنْتَ فعلت ذاك؟"، كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى، حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ نَمْرُود: {أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ}»²³.

وَقَدْ وَضَحَ ابْنُ هِشَامٍ الْأَنْصَارِيُّ فِي كِتَابِهِ "المغني" المقصود بالتقرير ووجه الفرق بَيْنَ مَا إِذَا كَانَ الْمَقَرَّرُ فِعْلاً أَوْ فَاعِلاً حَيْثُ يَقُولُ: «التَّفْهِيمُ وَمَعْنَاهُ حَمْلُكَ الْمُخَاطَبَ عَلَى الْإِقْرَارِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَمْرٍ قَدْ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ ثُبُوتُهُ أَوْ نَفْيُهُ، وَيَجِبُ أَنْ يَلِمَا الشَّيْءُ الَّذِي تَقَرَّرُهُ بِهِ، تَقُولُ فِي التَّفْهِيمِ بِالْفِعْلِ: "أَضْرِبْتَ زَيْدًا"، وَبِالْفَاعِلِ "أَأَنْتَ ضَرَبْتَ زَيْدًا"، وَبِالْمَفْعُولِ "أَزِيدًا ضَرَبْتَ" كَمَا يَجِبُ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ»²⁴.

أَيُّ: يَتَعَيَّنُ الْمَقَرَّرُ فِعْلاً كَانَ أَوْ فَاعِلاً أَوْ مَفْعُولًا بِالنَّظَرِ إِلَى الَّذِي يَلِي هَمْزَةَ الاسْتِفْهَامِ إِنْ كَانَ فِعْلاً، فَالسُّؤَالُ لِتَقْرِيرِ حَدُوثِ الْفِعْلِ، وَإِذَا كَانَ يَلِمَا فَاعِلَ "أَنْتَ" فَالْمَقَرَّرُ عَنْهُ فَاعِلٌ، وَإِذَا وَلِمَا مَفْعُولُ بِهِ، "أَزِيدًا ضَرَبْتَ"، فَالسُّؤَالُ مَتَرَدِّدٌ فِيمَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ. أَزِيدُ أَمْ عَمْرُو؟

فَنلاحظ من تحليل هاتهِ النصوص مدى العناية الكبيرة الَّتِي كانت توليها البلاغة العربيَّة لأغراض المتكلمين، وأحوال المخاطبين، فتختلف العبارة تقديمًا أو تأخيرًا على حسب سياق المقام والعلاقة الَّتِي تربط بين أطراف الخطاب، فإذا قلت: «أَأَنْتَ فعلت كان الشكُّ في الفاعل، على حين لو قدّمت الفعل فقلت: "أفعلت هذا" كان الشكُّ في جنس الفعل هل تحقق وقوعه أم لا، ومن هنا نرى الصلة الوشيعة الَّتِي تربط بين التراث البلاغي وما أشارت إليه التداولية من مفاهيم كالسياق المقامي، وغرض المتكلم، وإفادة السامع، ومراعاة العلاقة بين أطراف الخطاب، ومفهوم الأحداث الكلامية.

حَتَّى إِنَّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَزَادُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا تَرِدُ فِي الْكَلَامِ عِثًا بَلْ لَهَا مَزِيَّةٌ وَهِيَ تَأْكِيدُ الْكَلَامِ لِلْسَّامِعِ وَرَفْعُ الشَّكِّ عَنْهُ، فَتَرَاوِي بِذَلِكَ حَالِ الْمَخَاطَبِ سِوَاكَ كَانَ خَالِي الذَّهْنِ، أَوْ مَتَرَدِّدًا أَوْ مَنَكِرًا فَلَا مُؤَكَّدَاتٍ لَخَالِي الذَّهْنِ، وَمِنْ رَأْيِنَاهُ مَتَرَدِّدًا نُوَكِّدُ لَهُ عَلَى حَسَبِ تَرَدُّدِهِ، وَمِنْ كَانَ مَنَكِرًا نُوَكِّدُ لَهُ بِمُؤَكَّدَاتٍ كَثِيرَةٍ.

وإلى هذا نَوّه الجرجاني في قوله: «ومثال ذلك أن تقول "أنا كتبتُ في معنى فلانٍ وأنا شفعتُ في بابه"، تُريد أن تدعي الانفراد بذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباة فيه، وتردّ على من زعم أن ذلك كان من غيرك، أو أنّ غيرك قد كتب فيه كما كتبت. ومن البين في ذلك قولهم في المثل "أُتعلّمُني بضبّ أنا حرشته أن لا يكون القصدُ إلى الفاعلِ على هذا المعنى، ولكنّ على أنّك أردت أن تُحقّق على السّامع أنّه قد فعل، وتمنعه من الشكّ ... فإذا أخبرت بالخروج مثلاً عن رجلٍ من عادته أن يخرج في كلّ غداةٍ قلت: "قد خرج"، ولم تحنّج إلى أن تقول: "هو قد خرج"، ذاك لأنّه ليس بشيء يشكّ فيه السّامع»²⁵.

ولا شك أنّك إذا قدّمت الاسم تتشوّف النّفس إلى المعرفة فيكون أكثر تأكيداً للسّامع. قال التّويزي: «والسّبب في هذا التّأكيد أنّك إذا قلت مثلاً: زيد، فقد أشعرت بأنّك تريد الحديث عنه فيحصل لسامعه تشوّق إلى معرفته، فإذا ذكرته قبلته النّفس»²⁶.

ومما روعي فيه مقام الحال أيضاً وتضمّن التّأكيد على ما يناسب المقام ما أورده عبد القادر الجرجاني من أمثلةٍ نحو: «وبإناه: أنّك إذا قلت: "زيد المنطلق"، فأنت في حديثٍ انطلاقي قد كان، وعرف السّامع كونه، إلّا أنّه لم يعلم أمّن زيد كان أم من عمرو؟ فإذا قلت: "زيد المنطلق"، أزلت عنه الشكّ وجعلته يقطعُ بأنّه كان من زيد، بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز»²⁷.

فكثيراً ما تختلف الجمل وتنوّع التّراكيب لاختلاف حال السّامع أو السياق الذي يكون فيه المخاطب، فلا تقول: "زيد المنطلق"، إلّا إذا كان الانطلاق معلوماً لدى المتكلّم أو السّامع، ولكن يجهل صاحبه من هو أو هو عمرو أم زيد.

وعلى هذا فقد جعل عبد القاهر الجرجاني حصول الفائدة متوقفاً على مراعاة حال المخاطب، وحال المخاطب يعدّ ضابطاً مؤثراً في توجيه كلام المتكلّم²⁸.

وتأسيساً على هذا التحليل التداولي، والفهم العميق لسياق المقام، يرى عبد القاهر الجرجاني "أنّه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم"²⁹، فقولنا: زيد المنطلق ليس كقولنا: المنطلق زيد.

يقول: «وليس كذلك إذا قدّمت "المنطلق" فقلت: "المنطلق زيد"، بلى يكون المعنى حينئذ على أنّك رأيّت إنساناً ينطلق بالبُعد منك، فلم تثبته، ولم تعلّم أزيد هو أم عمرو، فقال لك صاحبك: "المنطلق زيد"، أي هذا الشخص الذي تراه من بُعد هو زيد. ولا يتصوّر هذا في "زيد المنطلق"، لأنّه وجّه هناك للجنسية، إذ ليس ثمّ إلا انطلاقاً واحداً قد عرّف المخاطب أنه كان، واحتاج أن يُعيّن له الذي كان منه ويُنصّ له عليه»³⁰.

وقد أولى الجرجاني عناية كبيرة للارتباط التداولي القائم بين صياغة الجملة وما يشير إليه فحوى الحال، وعلى المتكلّم أن يتبيّن حال المخاطب، فإذا ما بادره بجملة يستشعر منها سؤالاً فلا بدّ أن يجيبه ويزيح عنه ما راودته من أسئلة.

وفي هذا الصّدّد يفصل الجرجاني: «ومن النّادر أيضاً في ذلك قول الآخر:

قال لي كيف أنت قلتُ عليّ ... سهّر دائمٌ وحزنٌ طويلٌ

لما كان في العادة إذا قيل للرجل: "كيف أنت؟" فقال: "عليّ"، أن يسأل ثانياً فيقال: "ما بك؟ وما علّتك؟"، قدّر كأنه قد قيل له ذلك، فأتى بقوله: "سهّر دائمٌ" جواباً عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال، فاعرفه»³¹.

لما جرت عادة النّاس إذا سئلوا عن حالهم وأجابوا بأنّ بهم علة أن يسألوا عن سبب مرضهم، فلمّا قال الشاعر: "عليّ"، استشعر أنّ السامع يسأله عن سبب مرضه، فأجابه بقوله: "سهّر دائمٌ وحزنٌ طويل". وقد فهم الجواب من فحوى الحال المخاطب، كذلك فصل ولم يصل بالواو؛ لأنّه نزل الجملة الثانية منزلة الجواب من السؤال، مراعاة لنفسية السامع الذي يتبادره استفهام وسؤال تتضمنه الجملة الأولى.

وضرب الجرجاني مثالا آخر قوله: «مما هو في غاية الوضوح قوله تعالى {قالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} [الحجر: 57، 58]، وذلك أنّه لا يخفى على عاقلٍ أنه جاء على معنى الجواب، وعلى أن نزل السامعون كأنهم قالوا: "فما قال له الملائكة؟"، فقيل: {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ}»³².

لما قال الله عزّ وجلّ على لسان النّبيّ إبراهيم عليه السّلام: «قالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» نزل السامع منزلة من يسأل عن جواب الملائكة لإبراهيم عليه السّلام

فجاء الكلام مراعيًا المخاطب " {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} جواباً لما قد يتبادر في أذهانهم من الأسئلة .

وهذا ما تؤكده التداوليّة من وجوب تعديل موقف المستمع أو القارئ، يقول صلاح فضل عن التداوليّة: "فَنَ القول بشكل عام، أو هي فنّ الوصول إلى تعديل موقف المستمع، أو القارئ".³³

ومما يعدّ من التداوليّة أسلوب الحذف الذي يعدّ شجاعة اللغة العربيّة ومكمن إعجازها، قال محمّد أبو موسى «وإنّه من طبع اللّغة أن تُسْقِطَ مِنَ الألفاظ ما قام عليه دليل وأشعر بوجوده سياق الحال، وإنّ بلاغة الحذف وراء ذلك الإيجاز الذي ينوّه بذلك القارئ أو السّامع وتعوّل على إثارة حسّه؛ ليفهم بالقرينة ويدرك باللمحة معاني الألفاظ التي طواها التعبير»³⁴.

قال عبد القاهر الجرجاني: «إذا وَرَدَ بعد الإبهام وبعد التّحريك له، أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدّم ما يُحرّك. وأنت إذا قلت: "لو شئت"، علم السامع أنك قد علّقت هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يَضَعُ في نفسه أن ههنا شيئاً تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون. فإذا قلت: "لم تُفسد سَمَاحَةً حاتم"، عرّف ذلك الشيء»³⁵.

لقد عالج عبد القاهر الجرجاني الحذف في كثيراً من المواضع، وأبرز دوره في إثارة حسن السّامع وتشويقه كما في المثال الذي ضربه "لو شئت لم تُفسد سَمَاحَةً حاتم" فالشّاعر أبهم حين لم يذكر مفعول المشيئة ليستشعر السّامع أن ثمة شيءٍ تعلّقت به وجوداً وَعَدَمًا، فلمّا أبان عليه في جواب الشرط كان أوقع على النّفس.

قال السّبكي: «لأنّه إذا سمع السّامع "لو يشاء" تعلّقت نفسه بشيء أبهم عليه، لا يدري ما هو فلمّا ذكر في الجواب استبان بعد إبهامه»³⁶.

الخاتمة:

وفي خاتمة المطاف نحيل إلى بعض النتائج التي تفتّقت عن هذا البحث:

1. لقد عالجت البلاغة العربيّة مواضيع شتّى ترتبط أصالة بحال المخاطب ومراعاة مقام الحال والنّسق الاجتماعي، حتّى إنّ البليغ لا يعدّ بليغاً إلّا إذا راعى كلامه الفصيح

- مقتضى الحال، وهذا ما يؤكّد الصّلة الوثيقة بينها وبين نظرية السيّاق، وما أشارت إليه من أبعاد التّداولية في العصر الحديث.
2. تجلّى المنحى التّداولي بوضوح في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني في شتّى الأساليب البلاغيّة كالاستفهام والتّقديم والتّأخير، وأسلوب الفصل والوصل، والحذف والكناية والمجاز وغيرها.
3. يعدّ أسى مقامات التّداوليّة في التراث العربي تلك الكلمة المشهورة الّتي مفادها " لكلّ مقام مقال " وكذلك قول البيانيّين " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " ممّا يبرز دور المقام في البلاغة العربيّة، ومدى عناية التّداوليّة الحديثيّة به.
4. لقد استفادت التّداوليّة كثيرًا من التّراث العربي بصفة عامة ومباحث البلاغة العربيّة بصفة خاصّة مما يثمن الجهود الجبّارة الّتي بذلها علماؤنا في هذا المجال.

هوامش البحث

- ¹ طه عبد الرّحمان، فيأصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط2، د ت ص 244.
- ² محمّد بن عبد الرّحمن جلال الدّين القزويني الشّافعي، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، د ت، ص 52.
- ³ عبد الرّحمن بن حسن حَبَنَكَة الميّداني الدّمشقي، البلاغة العربيّة، دار القلم، دمشق، سوريا، الدّار الشّامية، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- ⁴ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السّكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 1987 م، ص 168.
- ⁵ راجع بن خويّة، التّمظهرات التّداوليّة في البلاغة العربيّة، جسور المعرفة، قسم اللغة العربيّة، كليّة الآداب، الشّلف، المجلّد 5، العدد 1، 2019 م، ص 76.
- ⁶ بوقرة نعمان، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب، دار الكتب الحديث، إربد، ط2، سنة 2008، ص152.
- ⁷ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرّحمان ص 202.
- ⁸ التّداوليّة في التّحو العربي، فيصل مفتن كاظم، كليّة التّربية، مجلّة أبحاث ميسان، البصرة، العراق، العدد 4، 2000، ص 37.
- ⁹ إرهاصات التّداوليّة في التّراث اللّغوي العربي، صلاح الدّين زرال، قسم اللغة العربيّة وآدابها، جامعة فرحات عباس سطيف، الجزائر، ص 63.
- ¹⁰ مفتاح العلوم، أبو يعقوب السّكاكي، ص 168.

- ¹¹ يُنظَر: التَّداولية عند علماء العرب " دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي"، صحراوي مسعود، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005.
- ¹² البلاغة العربية، ص308.
- ¹³ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، كلية الآداب، القاهرة، مصر، ط 17، 2005، ص 24.
- ¹⁵ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط3، 1992، ص 46.
- ¹⁵ الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعاتين لأبي هلال العسكري، سامية بن يامنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص 30.
- ¹⁶ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 69.
- ¹⁷ المصباح في المعاني والبيان، بدر الدين بن مالك " ابن الناطر"، تح: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، دت، ص 156.
- ¹⁸ باديس لبوميل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة أبحاث في اللغة والأدب، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة خيضر بسكرة، العدد 7، 2011 م ص 166.
- ¹⁹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص108.
- ²⁰ عثمان بن قنبر سيبويه، كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخناجي القاهرة مصر، ط4، 1988 م، ج1، ص34.
- ²¹ هاشمي إلياس، ديوان الحماسة البصرية لعلّي بن أبي الفرج البصري " دراسة نحوية بلاغية"، رسالة دكتوراة بإشراف د. لعرج عجّال، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة السعيدة، الجزائر، العام الدراسي: 2019/ 2020، ص112.
- ²² غالي فاطمة، أبعاد البلاغة التداولية. دراسة في الأساليب والسياق. مجلة الموروث، المجلد السابع، العدد 2، جامعة مستغانم الجزائر، 2019، ص172.
- ²³ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 113.
- ²⁴ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعريب، تح: مازن المبارك، دار الفكر دمشق. سوريا، ط4، 1985م، ص 26.
- ²⁵ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 128.
- ²⁶ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النُّوري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، ط1، 2001 م، ج7، ص 67.
- ²⁷ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 168.
- ²⁸ بوقرة نعمان، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب، ص121.
- ²⁹ المرجع نفسه، ص 120.
- ³⁰ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 168.
- ³¹ المصدر نفسه، ص 238.

³² المصدر نفسه، ص 238.

³³ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص 79.

³⁴ محمّد أبو موسى، خصائص التّراكيب " دراسة تحليلية لعلم المعاني"، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، د ت، ط1، د ت، ص 154 .

³⁵ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 164.

³⁶ بهاء الدّین السّبکی، عروس الأفراح في شرح التّليخيص، تح: عبد الحمید الهنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2003 م، ص 375.